مكتبة المقتطف

على هامش السيرة

الجزء الثالث للدكتور طه حسين بك — طبع بمطبعة المعارف بمصر — صفحاته ٢٤٧ من القطع المتوسط

كتب المؤرخون في السيرة وحواشيها وهوامشها وما يتصل بذلك من طبقات الرجال. فكان عملهم جليلاً، لأنهم جمعوها خشية الضياع، ولكنهم لم يعنوا بتحليل الخواطر وفلسفة النوازع وتعليل الدوافع وتجلية غوامض البواعث مثل ما عنوا بالسرد والقص، ولهذا تراهم قد أحسنوا الحكاية، وأجادوا الرواية. ولكنهم لم يحسنوا ما وراء ذلك من صدق التحليل وعمق التحليل وحسن الموازنة وجمال الاخراج واباقة العرض كما يصنع الكتاب الآن في سير الرسول وعباقرة الاسلام

ويمتاز « على هامش السيرة » بدقة الوصف وحسن التصوير حتى لا تكاد الصورة منه تخرم أصلها أو تفوت مثالها. فنفسية عمرو بن هشام « أبي جهل » قد جليت في الكتاب على حقيقتها. فهو الحسود الذي لا تهدأ نار حسده، وهو المسرف في البغضاء اذا أبغض وهو الصلف المغرور في مجالس عمه الوليد بن المغيرة، وهو الشارب المسرف في الشراب، وهو المخدوع في نفسه فيزعم انه يرى ما لا ترى قريش ويعلم ما لا تعلم. وهنا يضحك عمه الوليد وقد اختلط عقله فيما بين دعوة محمد وادعاء أبي جهل ويقول (والله ما أدري ما ألمّ بهذا الحرم وقد كان آمناً)

وهناك نفسية أخرى في الكتاب مائرة مضطربة، لأنها تثير الحيرة والاضطراب في نفس من قرأها أو سمع عنها. نفسية رجلٍ قتل حمزة عم النبي يوماً، وقتل نبيّاً كاذباً يوماً آخر. ولقد أبدع الدكتور طه حسين بك في وصف هذه النفسية الحائرة، حتى ليشفق القارىء عليها وهي مأخوذة بدم سيد الشهداء، ويرثى لها القارىء وقد اعتنقت الاسلام ولكن الندم على قتل حمزة يمزقها تمزيقاً. ويرثى لها كذلك وقد اضطربت آخر الأمر فاستعانت على الهم بالشراب، لا يمنعها منه دين ولا مروءة ولا عقل، حتى تسرف فيه فتموت ضرباً

(صفحة ١٨١)

أما نفسية مصعب بن عمير فقد كانت كذلك حائرة غير قارة في أول أمرها . فهو يحب الاسلام ويحب نبيه ، ويحب أمه المشركة لأنه كان باراً بها . ولهذا لم يعلن اسلامه خشية أن تفتنه قريش أو يتعرض لسخط أمه . ولكنه وضع دينه فوق بنوته ، ونبيه فوق عاطفته

* * *

يصادف القارىء في كتب السيرة كثيراً من الاخلاق الاسلامية مبثوثة في خلال الحوادث ، ويكاد كتاب السيرة يمرون على هذه المواقف مرّاً سريعاً ، فهم يكتفون بالاشارة اليها ولا يأخذون القارىء معهم الى الاعماق والأغوار ، ولعلّ هذه الاخلاق في الصدور الاولى كانت بارزة من تلقاء نفسها فلم تحتج الى من يدل عليها أو يأخذ بيد القارىء للوصول اليها . أو لعلّ هناك من الاسباب غير ذلك ... أما اليوم فالكاتب يخرج من الحدث الصغير بالدرس الكبير . وذلك واضح في هذا الكتاب . . فحكاية التمثيل بحمزة يثور لها قلب النبي الكريم ، ويقسم ليمثّلن بقتلى المشركين كما مثلوا بعمه . ولكن الله يؤدب النبي والمسلمين بهذه الآيات الكريمة (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ص ١١٧

وفي خلال الكتاب أحاديث عن الحرية شائقة كل الشوق ممتعة كل المتاع ، وكان طبيعيًّا أن يتحدث الدكتور عن الحرية ما دام في معرض الحديث عن العبيد أمثال عدّاس ص ١٣٩ ، ولسباس ص ١٦٧ ووحشي قاتل حمزة ص ١٨٤ . فلقد رفعت بعض هؤلاء العبيد نفوسهم وان وضعهم أساءهم ، وأعتق بعضهم لقتله حمزة فعاش بين قريش حرًّا كالعبيد وطليقاً كالأسير ص ١٨٨ . والدكتور هنا يشفق على قلوب الكرام من العبيد الأعزاء منهم ويقول في استفهام صارخ (ومتى آمن السادة الأحرار بالكرم والعزة للرقيق المستذل) ص ٢١٢ . وتلك التفاتة كريمة لاديب من أحرار الرجال . يعرف قيمة الرأي فيذكر في معرض الحديث عن انتشار دعوة النبي (وقد عرف الناس في تاريخهم كله انه لن يخدم رأي ولا دين بمثل اضطهاد أصحابه وفتنتهم) ص ٨٨

ولم يغفل الدكتور ناحية الخوارق والمعجزات ، فهو يصف المدد السماوي من الملائكة المسومين الذين كانوا يضربون من المشركين الاعناق ويقطعون منهم كل بنان ص ١٠٤ ، وهو يصف جنة الذين "شهيد حمزة وقد أصابت السحابة رجله فخرج منها دم زكي كما يجري دم أحدنا حين يصيبه الجرح اليسير ص ١١٦ ولكن الدكتور أغفل ذكر المصادر في معظم الكتاب الا في بضعة مواضع رجع فيها الى طبقات ابن سعد . وكان يكون العمل أتم في نظر طلاب التوسع في البحث من القرّاء لو ذكرت المصادر كلها ، فلا يؤثر بعض المصادر على

بعض . وقد جرى كتّاب الفرنجة من الآخذين بهذا الأسلوب الفائق في الترجمة للعظماء على تخصيص صفحة او اكثر او أقل في آخر الكتاب للمصادر التي يحسن بالقارىء الرجوع اليها ، حتى لا تثقل صفحات الترجمة نفسها بالهوامش والأسانيد

وفي الكتاب قوة في التعبير وقوة في الروح لا تنخلي واحدة منهما عن صاحبتها سطراً واحداً . ولهذا كان الكتاب قوي التأثير في كل موضوع خاض الحديث فيه ، فهو يسخطك على الرجل من المشركين كأبي جهل فيهون عليك ان تتمثله أمامك فتصفعه صفعاً وتزدريه ازدراء . وهو يرضيك على نفسية العبد الاسير الكريم فترفعه وتحبه حبّاً جمّاً ، وهو يصوّر لك القلب الرحيم في آخر فصل من فصول الكتاب فيخيل اليك ان قلبك يتزحزح عن مكانه لعلّ الله يجعل منهُ قلباً آخر أكثر رحمة وأشد حناناً

محمد عبد الغني حسن

عبقرية الامام

عباس محمود العقاد — مطبعة المعارف بمصر — صفحاته ٢٠٨ قطع وسط

على صفحة واسعة موثقة من الحياة في العصر الاسلامي الأول ، الحافل بعباقرة الرجال رسم الأستاذ العقاد ، صوراً تأخذ البصر وتستقر في النفس ، للافذاذ من أصحاب هذه العبقريات . فتوالت على المكتبة العربية من قلمه المسترسل وذهنه النفاذ ، عبقرية محمد ، فعبقرية عمر ، فعبقرية الصديق ، فعبقرية الامام

فالاستاذ العقاد عالم بتاريخ ذلك العصر الفذ في حياة الشرق العربي ، موغل في نواحي حياته الاجتماعية والفكرية ، ولكن علمه الواسع وفهمه الدقيق ، انما هي كالمادة التي ينغمس فيها المصور البارع ريشتهُ الساحرة ليستخرج بها الألوان بالمقادير اللازمة والظلال الثوانية ، لذهن الصفحة العامة التي لا كيان لصورة ما بدونها . وهي ما يسمونهُ في التعبير الفني Background . وعلى هذه الصفحة ، ترسم الصورة الخاصة المقصودة . والصورة الخاصة المقصودة ، في ترجمة المترجم ، كما هي في رسم الرسام ، ليست تخطيطاً لقسمات الرسوم وحسب ، فالتصوير الصوتي ، أصدق من ريشة الرسام في هذا . والفن في تصوير الرجال أساسه رؤية الرجل من خلال المزاج الخاص أي ان المصور البارع والمترجم البارع ، عليهما كليهما ، ان ينفذا الى خلق الرجل ، وان يبرزا مزايا هذا الخلق ، دهاناً على اللوحة وكلاماً على الورق

والنجاح في الحالين ، مرتبط أوثق ارتباط ، بصفة نادرة بين رجال التصوير ومترجمي السير هي السواء وهي صفة الفهم والتعاطف . ولحظ الاستاذ العقاد من هذه الصفة ، في

ترجمة عباقرة الاسلام الأول حظٌّ كبيرٌ حقًّا ، يمده الاطلاع الدقيق على دقائق العصر الذي عاشوا فيه واتصلت حياتهم بحياته . ويمده كذلك علمٌ واسع في أخلاق الرجال مستمدٌ من تجربة الرجال ، ومن الاطلاع على ما كتبه كبار الكتاب في سير الأفذاذ من أبناء الشعوب الاخرى . وأخيراً يضبط هذا كله ذهن متوقد نافذ الى الصميم من طبائع الناس

والاستاذ العقاد لا يكتفي برسم هذه الصور ، كما كان أصحابها يحيون في العصر الذي أنجبهم ، ولا يقتصر على تأثير عصرهم فيهم ، ولا على تأثيرهم في عصرهم . بل هو يتخطى القرون ، لينقل الى عصرنا هذه العبر المستخرجة من حياتهم ، وما لها من منزلة في مواجهة مشكلات العصر الحديث . وقد يتغير القالب الذي تفرغ فيه مشكلات الاجتماع البشري ، ولكن الينابيع التي تفيض منها القوى الانسانية الكفيلة بمواجهة المشكلات وحلها واحدة على عصور التاريخ . ومن هنا قوله في مستهل « عبقرية الإمام » (في كل ناحية من نواحي النفوس الانسانية ملتقًى بسيرة علي بن ابي طالب رضوان الله عليه ، لأن هذه السيرة تخاطب الانسان حيثما اتجه اليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل) وكيف يكون لهذا العهد ما يتمناه له المتمنون من اصلاح وصلاح بغير كلمة علي (من كلمات الامام التي لم يقلها غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول : يا دنيا غرّي غيري . . . غرّي غيري)

قصة الادب في العالم

تصنيف الاستاذين أحمد أمين بك وزكي نجيب محمود — الجزء الاول منه عدد صفحاته ٥٠٠ من القطع الكبير — من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر

الاستاذ الجليل أحمد أمين بك أيادٍ لا يجحد فضلها على النهضة الأدبية والفكرية الحديثة ، وقد تعدّدت نواحي جهوده الفكرية ونشاطه العلمي تعدُّداً جنت من ورائه هذه النهضة أطيب الثمرات . وحلّت آثاره من نفوس أهل الادب في المكانة العالية اللائقة بها

فكتابه « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » يعدّان من أنفس ما كتب في تاريخ الفكر العربي ، وكتابه « الاخلاق » من أمتع ما كتب في هذا الباب ، وكتابه « فيض الخاطر » باجزائه الثلاثة معرض للقارىء يتنقل فيه بين فنون شتى من أدب الكاتب وعلمه ، كما ان كتابيه اللذين اشترك واياه في تصنيفهما الاستاذ زكي نجيب محمود وهما « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » مرجعان نفيسان لا يستغنى عنهما في بابهما

ولم يقف فضل الاستاذ أحمد أمين بك عن حدّ التأليف والتصنيف بل تعدّى ذلك في تواضع العالم الى إبراز كثير من الآثار الأدبية إبرازاً علميًّا محققاً مشروحاً فقد اشترك في إخراج كتاب « المكافأة » لأبي جعفر احمد بن يوسف وكتاب « الامتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي وكتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه وغير ذلك من الآثار النفيسة علاوة على الاشراف على لجنة التأليف والترجمة والنشر وإصدار مجلة « الثقافة » وكل هذا ليس بالجهد اليسير

ومن آثاره الجديدة كتاب «قصة الأدب في العالم» الذي اشترك معه في وضعه الاستاذ زكي نجيب محمود وهو كتاب يقع في ثلاثة اجزاء يعرض الأدب في عصوره المختلفة ، قديمه ووسيطه وحديثه في الشرق والغرب مع تقديم نماذج من كل أدب

وقد صدر منهُ الجزءُ الأوّل في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى فتناول فيه مؤلفاه الفاضلان قصة الكتابة ونشأة الأدب ثم عرضا للأدب القديم فتناولا في هذا العرض الكلام عن الأدب المصريّ وأدب الصين والأدب الهنديّ والأدب الفارسيّ القديم والأدب العبريّ والأدب اليوناني والادب الروماني ، حتى اذا أشرفا على أدب العصور الوسطى تكلما عن الأدب الانجليزي فالفرنسي فالاسباني فالايطالي وانتقلا الى الادب العربي في تلك العصور فتكلما عن الشعر من العصر الجاهلي الى آخر العصر العباسي ثم النثر كذلك فالفلسفة الاسلامية والخطابة

على أن المؤلفين الفاضلين قد أغفلا البحتري فلم يعرضا له في موكب الشعراء وليس البحتري بالشاعر الذي يهمره التاريخ وبخاصة في كتاب كهذا يتناول قصة الأدب وأبطاله . ثم انتقلا من ذلك الى الادب الفارسيّ الاسلامي فتناولا شعره وأوزانه وتاريخه وموضوعاته وخصائصه والقصص فيه والشاهنامه الخ ...

وان الفكرة التي حدت بمؤلفي هذا الكتاب الى وضعه واخراجه لفكرة جليلة خدما بها الأدب العربي وأسديا الى الادباء العرب يداً باقية الأثر فقد سدّا نقصاً كبيراً وقفت دونه النهضة العربية في عصر الدولة العباسية وما تلاه من عصور التاريخ فلم تتناول بالترجمة آثار الأمم الاخرى في الأدب كما تناولت ترجمة علوم هذه الأمم ومعارفها في الطب والفلسفة والرياضة والفلك . على اننا نرجو أن يكثر المؤلفان من نقل النماذج الطيبة من كل أدب لتكون الكثرة من هذه النماذج صوراً ينسج أدباء العربية أعينهم عليها فيكسب الادب العربي من وراء ذلك فائدة التنويع والتوسيع في مجراه ومحفزهُ حافز الاستلهام.

حسن كامل الصيرفي

الكون العجيب

فدري حافظ طوقان — سلسلة « اقرأ » صفحاتها ١٤٢

ليس بين العلوم ما هو أعلق بالنفس وأدعى الى العجب وأحفز للخيال وأبعث على الشعور بعظمة الخالق وجلاله من علم الفلك . ولو كانت النجوم في القبة الزرقاء تظهر مرةً كل قرن ، لهيَّم الناس في العراء ، للتمتع بمشاهدتها وروعة جمالها ، ولكننا نراها كل ليلة ، فأزالتها الألفة من المنزلة الخليقة بها ، في أذهان الناس وتقويمهم

وعلم الفلك ليس علماً نظريًّا وحسب ، لا يستحق العناية به من غير العلماء ، كما يزعم كثيرون من الذين يجهلون بعض العلوم لأنهم لا يرون فيها فائدةً ما . أليس في دراسة المدّ والجزر فائدة للملاحة ، وفي دوران الكواكب ما لا غنى عنهُ في التوقيت الدقيق ، وفي الحلّ الطيفي كشف عن عناصر الارض في النجوم وعن عناصر النجوم في الارض ، وفي مسائل الاشعاع صلة بتطور الحياة على الارض ، وأحوال الجوّ والريح ، وربما ببعض الامراض والحالات النفسية ؟ ولماذا يجب ان يطلب كل علم بما فيهِ من فائدةٍ مادية وعملية ؟ أليس تاريخ العلم سلسلة من البحوث النظرية التي أفضت — على الغالب — الى مخترعات لها في الحياة والاجتماع أعظم أثر ماديّ . وحتى اذا فرضنا ان علم الفلك خلو من كل فائدة مادية ، أليس فيهِ من بواعث السموّ وحوافز الخيال ما في الشعر العالي ؟

وعلم الفلك قائم على أدق الحسابات الرياضية وأعقدها ، واليها مرجع الاحكام التي لا يكاد يخطىء في تنبؤه بأحداث السماء . ولكنهُ مع ذلك سهل تبسيط الاساسيّ من مبادئه وغوامره ، حتى ليقرؤه غير المتعمق في العلوم فيفيد علماً بغير مشقةٍ كبيرة ، ويزداد فهماً لعجائب الكون وخالقهِ « السموات تحدّث بمجد الرب والفلك يخبر بعمل يديهِ » . ولعلّ العلامة السر جيمز جينز هو أشهر علماء العصر الحديث الذين بسطوا الفلك الحديث لقراء اللغة الانكليزية . وقد أفاد الاستاذ طوقان مما فعلهُ جينز وغيره من العلماء فأسدى الى قراء العربية مثل الخدمة التي أسداها جينز الى قراء الانكليزية . ففي هذا الكتاب ١٤٢ صفحة حافلة بحقائق الفلك وعجائب الكون . والاستاذ طوقان لم يأخذ عن كتاب العلم المحدثين وحسب ، بل أحسن الاخذ ، ثم أحسن التبويب والتمثيل ، ثم أضاف الى كتابهِ شيئاً كثيراً من تحقيقهِ وتنقيبهِ في تاريخ الفلك عند العرب ، ولا غرو فهذه الناحية لا تبعد عن متناول مؤلف « تراث العرب العلميّ » .

ان سلسلة « اقرأ » ما كان يحسن ان تختم سلسلتها الاولى بغير كتاب في تبسيط أحد العلوم ، ولا ريب في أنها وفقت في اختيار « الكون العجيب »